عبد الله بن مسعود
أول صادح بالقرآن

قبل أن يدخل رسول الله صلى اللّهُ عليه وسلم دار الأرقم، كان «عبد الله بن مسعود» قد آمن به، وأصبح سادس ستة أسلموا واتَّبَعُوا الرسُول، عليه وعليهم صلاة الله وسلامه...

هو إذن من الأوائل المبكِّرين...

ولقد تحدّث عن أوَّل لقاء له برسُول الله فقال:

«كنت غلامًا يافعًا، أرعى غنمًا لعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط فجاء النبى صلى الله عليه وسَلم، وأبو بكر، فقالا: يا غلام، هل عندك من لَبنٍ تَسْقينا...؟؟

«فقلت: إنى مُؤْتَمَن، ولستُ سَاقِيَكما...

«فقال النبى عليه الصلاة والسلام: هل عندك من شاةٍ حائلٍ، لم يَنْزُ عليها الفحل..؟؟

«قلت: نعم...

«فأتيتها بها، فاعْتَقَلَها النبى ومسحَ الضَّرْع ودعا رَبَّه فحفَل الضرع... ثم أتاه أبو بكر بصخرة مُتَقَعِّرَة، فاحْتَلب فيها، فشرب أبو بكر، ثم شربْتُ... ثم قال للضَّرْع: اقْلِصْ، فقلَص...

«فأتيت النبى بعد ذلك، فقلت: عَلِّمنى من هذا القوْل.

فقال: إنك غُلامٌ مُعَلَّم»...

* * *

لقد انبهر عبد الله بن مسعود حين رأى عبد الله الصالح ورسوله الأمين يدعو ربه، ويمسح ضرعًا لا عهد له باللبن بعدُ، فإذا هو يُعْطى من خير الله وَرِزْقِه لَبنًا خالصًا سائغًا للشاربين..!!

وما كان يدرى يومها، أنه إنما يشهد أهون المعجزات وأقلها شأنًا، وأنه عما قريب سيشهد من هذا الرسُول الكريم معجزات تهز الدنيا، وتملؤها هدى ونورًا...

بل ما كان يدرى يومها، أنه وهو ذلك الغلام الفقير الضعيف

الأجير الذى يرعى غنم عُقبة بن أبى مُعَيْط، سيكون إحدى هذه المعجزات، يوم يخلق الإسلام منه مُؤمِنًا يهزم بإيمانه كبرياء قريش، ويقهر جبروت سادتها...

فيذهب، وهو الذى لم يكن يجرؤ أن يمر بمجلس فيه أحد أشراف مكة إلا مطرق الرأس حثيث الخطى.. نقول: يذهب بعد إسلامه إلى مَجْمع الأشراف عند الكعبة، وكل سَادات قريش وزعمائها هنالك جالسون فيقف على رءوسهم ويرفع صوته الحلو المثير بقرآن الله:

﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم
الرَّحْمٰن.. عَلَّمَ القرآن.. خَلقَ الإنسان.. عَلَّمهُ البَيَان.
الشمسُ والقمرُ بحُسْبَان.. والنجمُ والشجَرُ يَسْجُدان﴾.

ثم يُوَاصل قراءته، وزعماء قريش مشدوهون، لا يصدقون أعينهم التى ترى.. ولا آذانهم التى تسمع.. ولا يتصوّرون أن هذا الذى يتحدى بأسهم وكبرياءهم... إنما هو أجيرٌ واحد منهم، وراعى غنم لشريف من شرفائهم.. عبد الله بن مسعود الفقير المغمور..!!

ولْنَدَع شاهد عيان يصف لنا ذلك المشهد المثير..

إنه «الزُّبير» رضى الله عنه يقول:

«كان أول من جهرَ بالقرآن بعد رسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم بمكة، «عبد الله بن مسعود» رضى الله عنه، إذ اجتمع يومًا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا:

والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجْهَرُ لها به قط، فمنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُموه...؟؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا..

قالوا: إنا نخْشَاهم عليك ، إنمـا نريد رجلًا له عَشِيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه...

قال: دعونى، فإن الله سَيَمْنَعُنى..

«فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضُّحَى، وقريش فى أنديتها، فقام عند المقام ثم قرأ: بسْم الله الرحمٰن الرحيم - رافعًا بها صوته - الرحمٰن.. علّم القرآن، ثم استقبلَهم يقرؤها..

فتأمَّلوه قائلين: ماذا يقول ابنُ أُمِّ عَبْد..؟؟ إنه لَيتلُو بعض ما جاء به محمد...

فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه، وهو ماضٍ فى قراءته حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلُغ...

ثم عاد إلى أصحابه مُصاباً فى وجهه وجسده، فقالوا له: هذا الذى خشيناهُ عليك...

فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عَلَىَّ منهم الآن، ولئن شِئْتم لأُغَادِيَنَّهُمْ بمثلها غدًا...

قالوا له: حَسْبُك، فقد أَسْمَعْتَهُمْ ما يكرهون».. !!

أجلْ.. ما كان «ابن مسعود» يوم بَهَرَه الضَّرْع الذى حَفَل باللبن فجأة وقبل أوانِهِ.. ما كان يومَها يعلم أنه هو ونُظَراؤه من الفقراء والبُسَطَاء، سيكونون إحدى معجزات الرسول الكبرى، يومَ يحملون راية الله، ويقهرون بها نور الشمس وضوء النهار.. !!

ما كان يعلم أن ذلك اليوم قريب..

ولكن سرعان ما جاء اليوم، ودقت الساعَة، وصار الغلامُ الأجير الفقير، الضائع.. مُعْجزةً من المعجزات.. !!

* * *

لم تكن العين لِتَقَعَ عليه فى زحام الحياة..

بل ولا بعيدًا عن الزحام.. !!

فلا مكان له بين الذين أُوتوا بَسْطةً فى المال، ولا بين الذين أُوتوا بَسْطَةً فى الجسم، ولا بين الذين أُوتوا حظًّا من الجاه..

فهو من المال مُعدم... وهو فى الجسم ناحلٌ، ضامر... وهو فى الجاه مغمور...

ولكن الإسلام يمنحه مكان الفقر نصيبًا رابيًا وحظوظًا وافية من خَزائن كسرى وكنوز قيصر..!

ويمنحه مكان ضمور جسمه وضعف بنيانه، إرادة تقهر الجبَّارين، وتُسهم فى تغيير مصير التاريخ...!

ويمنحه مكان انزوائه وضيَاعِهِ، خُلودًا، وعلمًا، وشرفًا، تجعله فى الصدارة بين أعلام التاريخ...!!

ولقد صَدَقَتْ فيه نُبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام يوم قال له: «إنك غلامٌ مُعَلَّم» فقد عَلَّمه ربه، حتى صار فقيه الأمة، وعميد حَفَظة القرآن جميعًا...

يقول عن نفسه:

«أخذتُ من فَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبْعين سُورة، لا يُنَازعنى فيها أحد».

ولكأنما أراد الله مَثُوبَتَهُ حين خاطر بحياته فى سبيل أن يجهر

بالقرآن ويُذيعه فى كل مكان بمكة أثناء سنوات الاضطهاد والعذاب فأعطاه سبحانه موهبة الأداء الرائع فى تلاوته، والفهم السديد فى إدراك معانيه..

ولقد كان الرسُول يوصى أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود فيقول:

«تَمَسَّكُوا بعهد ابنِ أُمِّ عَبْد»..

ويوصيهم بأن يُحَاكُوا قراءته، ويتعلموا منه كيف يتلون القرآن.

يقول عليه السلام:

«من أحَبَّ أن يَسْمَعَ القرآن غَضًّا كما أُنزِلَ فَلْيَسْمَعْهُ مِن ابن أُمِّ عَبْد»...

«منْ أحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزِل، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَة ابن أُمِّ عَبْد».. !!

ولطالما كان يطيبُ للرسُول عليه السلام أن يستمع للقرآن من فم ابن مسعود..

دعاه الرسول يومًا، وقال له:

«اقرأ عَلَيَّ يا عَبْد الله»...

قال عبد الله:

«أقرأ عليك، وعليك أُنزل يا رسُول الله»؟!

فقال له الرسول:

«إنى أُحِبُّ أن أسمعه من غيرى»..

فأخذ ابن مسعود يقرأ من سُورة النساءِ حتى وصل قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وَجِئنَا بكَ عَلَى هؤلاءِ شهيدًا..

يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وَعَصَوُا الرسُولَ لوْ تُسَوَّى بهم الأرضُ.. ولا يَكْتُمُون الله حديثًا﴾...

فغلب البكاءُ رسُول الله، وفاضت بالدموع عَيْناه، وأشار بيده إلى ابن مسعود: أن.. «حَسْبُكَ.. حَسْبُكَ يا ابن مسعود»...

وتحدَّث هو بنعمة الله فقال:

«والله، ما نزل من القرآن شيءٌ إلا وأنا أعلم فى أىّ شىء نزلَ، وما أحدٌ أعْلم بكتاب الله منى، ولو أعلم أحدًا تُمْتَطَى إليه الإبل أعلم منى بكتاب الله لأتيتُه وما أنا بخيركم»!!

ولقد شهد لهُ بهذا السَّبْق أصحاب رسُول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عنه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه:

«لقد مُلِئَ فِقهًا»..

وقال أبو موسى الأشعرى:

«لا تسألونا عن شىء ما دام هذا الْحَبْرُ فيكم».

ولم يكن سبقه فى القرآن والفقه موضعَ الثناء فحسب... بل كان كذلك أيضًا سبقه فى الورع والتُّقى.

يقولُ عنه حُذَيفة:

«ما رأيتُ أحدًا أشبه برسُولِ الله فى هَدْيِه، وَدَلِّه، وَسَمْتِه من ابن مسعود...

«ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أُمِّ عَبْد أقربهم إلى الله زلْفَى»... !!

واجتمع نفر من الصحابة يومًا عند على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه فقالوا له:

«يا أمير المؤمنين، ما رأينا رَجُلا كان أحسن خُلُقًا

ولا أَرْفَقَ تعليمًا، ولا أحسَنَ مُجَالسةً، ولا أشدَّ وَرَعًا من عبد الله بن مسعود...

قال على:

نَشَدْتُكُم الله، أهوَ صِدْقٌ مِنْ قلوبكم...؟؟

قالوا:

نعم...

قال:

«اللهم إنى أُشْهِدُك... اللهمَّ إنى أقول فيه مثلَ ما قالوا أو أفضل...

«لقد قرأ القرآن فأحَلَّ حَلَاله، وحَرَّم حَرَامَه.. فقيهٌ فى الدين، عالِمٌ بالسُّنَّة».. !!

* * *

وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدثون عن «عبد الله بن مسعود» فيقولون:

«إنْ كان لَيُؤْذَنُ له إذا حُجِبْنَا، وَيَشْهَدُ إذا غِبْنَا»....

وهم يريدون بهذا، أن عبد الله رضى الله عنه كان يظفر من

الرسول صلى الله عليه وسلم بفُرص لم يظفر بها سواه، فيدخل عليه بيته أكثر مما يدخل غيره، ويُجَالسه أكثر مما يُجَالسه سواه.. وكان دون غيره من الصَّحْب موضِع سِرِّه ونجواه، حتى كان يُلَقَّبُ بـ «صاحب السَّواد» أى صاحب السِّر...

يقول أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه:

«لقد رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم، وما أرى إلا ابن مسعود من أَهْله»...

ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يُحبُّه حبًّا عظيمًا، وكان يُحِب فيه وَرَعَه وفِطْنته، وعظمة نفسه.. حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه:

«لو كُنتُ مُؤَمِّرًا أحدًا دُونَ شُورَى المسلمين، لَأَمَّرْتُ ابن أُمِّ عَبْد»..

وقد مرت بنا من قبل، وصية الرسول لأصحابه:

«تَمسكُوا بِعَهدِ ابن أُمِّ عَبْد»..

وهذا الحب، وهذه الثقة أهَّلاه لأن يكون شديد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَأُعْطِىَ مالم يُعْطَ أحدٌ غيره حين قال له الرسول عليه السلام: «إِذْنُكَ عَلَىَّ أن ترفَع الحجاب»..

فكان هذا إيذانًا بحقه فى أن يطرق باب الرسول عليه أفضل السلام فى أى وقت يشاء من ليل أو نهار..

وهكذا قال عنه أصحابه:

«كانَ يُؤْذَنُ لهُ إذا حُجِبْنَا، وَيَشْهَدُ إذا غِبْنَا»..

ولقد كان ابن مسعود أَهْلًا لهذه المزيَّة.. فعلى الرغم من أن الخُلْطَة الدانية على هذا النحو، من شأنها أن ترفع الكُلْفَة. فإن ابن مسعود لم يَزْدَدْ بها إلا خشوعًا، وإجلالاً، وأدبًا...

ولعلَّ خير مايُصَوِّر هذا الخلق عنده. مظهره حين كان يُحَدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته...

فعلى الرغم من نُدرة تحدُّثه عن الرسول عليه السلام، نجده إذا حرَّك شفتيه ليقول: سمعتُ رسول الله يحدث ويقول... تأخذه الرِّعدة الشديدة ويبدو عليه الاضطراب والقلَق، خَشْية أن يَنْسَى فيضع حَرْفًا مكان حَرْف..!!

وَلْنَسْتمع لإخوانه يصفون هذه الظاهرة..

يقول عمرو بن ميمون:

«اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سَنَةً، ما سمعتهُ يُحَدِّث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا

أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرَى على لسانه: قال رسول الله، فعلاَهُ الكَرْبُ حتى رأيتُ العَرَق يتحدَّر عن جبهته، ثم قال - مُسْتَدْرِكًا - قريبًا من هذا قال الرسول».. !!

ويقول عَلْقَمَةُ بن قيس:

«كان عبد الله بن مسعود يقوم عَشِيَّةَ كل خميس مُتحدِّثًا، فما سمعتهُ فى عَشِيَّةٍ منها يقول: قال رسول الله غيرَ مرة واحدة.. فنظرتُ إليه وهو مُعتمدٌ عَلَى عَصَا، فإذا عصاهُ ترتَجف، وتتزَعْزَع»..!!

ويحدثنا مسروق عن عبد الله:

«حدَّث ابن مسعود يومًا حديثًا فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم أُرْعِدَ وأُرْعِدَت ثيابه.. ثم قال: أوْ نَحْوَ ذا... أو شِبْهَ ذا»..!!

إلى هذا المدى العظيم بَلَغ إجلالُه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وبلَغ توقيرُه إيَّاه، وهذه أمارَة فطنته قبل أن تكون أمارةَ تُقاه... !!

فالرجل الذى عاصَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من

غيره، كان إدراكُه لجلال هذا الرسول العظيم إدراكًا سديدًا.. ومن ثَمَّ كان أَدَبُه مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته، ومع ذِكْرَاه فى مماته، أدبًا فريدًا..!!

لم يكن يفارق رسُول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر، ولا فى حَضَر...

ولقد شهد المشاهد كلها، والغزوات جميعها.. وكان له يوم بدر شأن مذكور مع أبى جهل الذى حصدته سيوف المسلمين فى ذلك اليوم الجليل..

وعرف خلفاء الرسُول وأصحابه له قدرة.. فَوَلَّاهُ أمير المؤمنين عمر على بيت مال الكُوفة. وقال لأهلها حين أَرْسَلَه إليهم:

«إنى و الله الذى لا إلٰه إلا هو، قد آثرتُكُمْ به على نفسى، فخذوا منه وتعلّموا».

ولقد أحبَّهُ أهل الكُوفة حُبًّا لم يظفر بمثله أحدٌ قبله، ولا أحدٌ مثله... وإجماع أهل الكُوفة على حُب إنسان، أمر يشبه المعجزات..

ذلك أنهم أهل تمرُّد وثورة، لا يَصْبرون على طعام واحد..!! ولا يطيقون الهدوء والسَّلام..

ولقد بلَغ من حبهم إياه أن أحاطوا به حين أراد الخليفة عثمان رضى الله عنه عزلَه عن الكُوفة وقالوا له: «أَقِمْ معنا ولا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه منه»..

ولكن ابن مسعود أجابهم بكلمات تُصوِّر عظمة نفسه وَتُقَاهَا، إذ قال لهم:

«إن له عَلَيَّ الطاعة، وإنها ستكون أمور وفتن، ولا أحب أن أكون أَوَّلَ من يفتح أبوابها»..!!

إن هذا الموقف الجليل الورع يَصِلُنا بموقف ابن مسعود من الخليفة عثمان... فلقد حدث بينهما حِوار وخلاف تفاقَما حتى حُجِبَ عن عبد الله راتبه ومعاشُه من بيت المال... ومع ذلك لم يقل فى عثمان كلمة سُوءٍ واحدة...

بل وقف موقف المُدَافع والمُحَذِّر حين رأى التذمُّر فى عهد عثمان يَتَحَوَّل إلى ثورة..

وحين ترامى إلى سمعة مُحاولات اغتيال الخليفة عثمان، قال كلمته المأثورة:

«لئن قَتَلُوه، لا يستخلفون بعده مِثلَه»..

ويقول بعض أصحاب ابن مسعود:

«ما سمعتُ ابن مسعود يقول فى عثمان سُبَّةً قط»..

* * *

ولقد آتاه الله الحِكْمة مثلما أعطاه التقوى.

وكان يملك القدرة عَلَى رؤية الأعماق، والتعبير عنها فى أناقة وسَداد.. لنستمع له مثلا وهو يُلَخص حياة عمر العظيمة فى تركيز باهر فيقول:

«كان إسلامُه فتحًا.. وكانت هِجرتُه نصرًا... وكانت إمارتُه رحمة...».

ويتحدث عمّا نسميه اليوم نِسْبِيَّة الزمان فيقول:

«إن رَبَّكُمْ ليس عِنْدَهُ ليلٌ ولا نهار... نورُ السمٰوات والأرض مِنْ نور وجهه»..!!

ويتحدث عن العمل وأهميته فى رفع المستوى الأدبى لصاحبه، فيقول:

«إنى لأَمْقُتُ الرجل، إذْ أراه فارغًا... ليس فى شىء من عَمل الدنيا، ولا عَمَلِ الآخرة»..

ومن كلماته الجامعة:

«خيرُ الغِنَى غِنَى النفس، وخيرُ الزاد التقوى، وشرُّ العَمَى عَمَى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشرُّ المكاسِب الرِّبا، وشرُّ المأْكَل مالُ اليتيم، ومَنْ يعفُ يعْفُ الله عنه، ومن يَغْفِرْ يَغْفِر الله له»...

* * *

هذا هو عبد الله بن مسعود صاحب رَسُول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه ومضة من حياةٍ عظيمة مستبسلة، عاشها صاحبها فى سبيل الله، ورسُوله، ودينه..

هذا هو الرجل الذى كان جسمه فى حَجْم العصفور..!!

نحيف، قصير، يكاد الجالسُ يوازيه طولاً وهو قائم..

له ساقان ناحِلتان دقيقتان.. صعَد بهما يومًا أعْلى شجرة يَجْتَنى منها أَرَاكًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. فرأى أصحاب النبى دقتهما فضحكوا، فقال عليه الصلاة والسلام:

«تضحكون من سَاقَى ابنِ مسعود، لَهُما أثْقَلُ فى الميزان عند الله من جبل أُحُد»..!!

أَجَلْ.. هذا هو الفقير، الأجير، الناحِلُ الوَهْنان.. الذى جعل

منه إيمانه ويقينُه إمامًا من أئمة الخير والهُدى والنور..

ولقد حَظِيَ من توفيق الله ومن نعمته بما جعله أحد العشرة الأوائل بين أصحاب الرسُول صلى الله عليه وسلم.. أولئك الذين بُشِّرُوا وهم على ظهر الأرض برضوان الله وَجَنَّته...

وخاض المعارك الظافرة مع الرسُول عليه السلام، ومع خلفائه من بعده..

وشهد أعظم امبراطوريتين فى عالَمِهِ وعصره تفتحان أبوابها طائعة خاشعة لرايات الإسلام ومشيئته...

ورأى المناصب تبحث عن شاغليها من المسلمين، والأموال الوفيرة تَتَدَحْرَجُ بين أيديهم، فما شَغَله من ذلك شىء عن العهد الذى عاهد عليه الله ورسوله.. ولا صرفَه صارفٌ عن إخْبَاتِه وتواضُعِهِ ومَنهج حياته...

ولم تكن له من أمانِيِّ الحياة سِوَى أُمْنِيَّة واحدة كان يأخذه الحنين إليها دَوْمًا فيُرَدِّدها، ويتغنى بها، ويتمنى لو أنه أدركَها..

وَلْنُصْغ إليه يحدِّثنا بكلماته عنها:

«قمتُ من جَوْف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك.. فرأيت شُعلةً من نار فى

ناحية العسكر فاتَّبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله، وأبو بكر وعمر، وإذا «عبدُ الله ذو البِجَادَيْنِ المُزَنىُّ» قد مات وإذا هم قد حَفَروا له، ورسُول الله صلى الله عليه وسلم فى حُفرته. وأبو بكر وعمر يُدَلِّيَانِهِ إليه، والرسول يقول: أَدْنِيَا إلىَّ أخاكما... فدلَّيَاهُ إليه، فلما هَيَأه لِلَحْده قال: اللهم إنى أَمْسَيْتُ عنه راضيًا فارض عنه.. فيالَيْتنى كنتُ صاحبَ هذه الحفرة»..!!

* * *

تلك أُمنيته الوحيدة التى كان يرجوها فى دنياه...

وهى - كما ترون - لا تمتُّ بسبب إلى ما يتهافَتُ الناس عليه من مجد، وثراء. ومنصب، وجاه...

ذلك أنها أُمنيَّة رجل كبير القلب، عظيم النفس، وثيق اليقين.. رجل هداهُ الله، وربَّاه الرسول، وقاده القرآن...!!